الدرس السيميائي بين التراث والحداثة
أسس ومعطيات

أ.د/ عبد القادر شارف

جامعة حسيبة بن بوعلي– الشلف(الجزائر)

ملخص المقال باللغة العربية:

عرف النقد العربي الحديث والمعاصر مجموعة من المناهج النقدية بفضل المثاقفة والترجمة والاحتكاك مع الغرب، ومن بين هذه المناهج: المنهج السيميولوجي الذي أصبح منهجا وتصورا ونظرية وعلما لا يمكن الاستغناء عنه لما أظهر عند الكثير من الدارسين والباحثين من نجاعة تحليلية وكفاءة تشريحية في شتى التخصصات والمعارف الإنسانية.

وعلى الرغم من تعرض علماء العرب في أبحاثهم للسيمياء أو علم العلامة كأداة للتواصل ونقل المعارف، فإننا لا ندعي أنَّ هذا العلم بصيغته الحالية كان معروفا، إنَّما ذلك لا يتعدى الإشارة إلى معرفة العرب للعلامة ووظيفتها، والعودة إلى التراث ضرورة وجودية ومعرفية في الوقت نفسه.

من هنا اكتسبت العلامات بعدها الثقافي كحقائق خاضعة للمجتمع في حركته وتطوره، تنوعت تبعا لتنوع المعارف والحاجات الإنسانية، فهناك الألفاظ والإشارات والرموز والآثار والإيماءات والمشاهد، واختص كل نظام من الأنظمة السيميائية بعلامات خاصة، ومع ذلك يمكن أن تقسَّم هذه العلامات إلى لسانية (ألفاظ) أو اللغة البشرية، وغير اللسانية وتشمل جميع أنظمة السيمياء غير اللفظية، وهناك من يقسِّمها إلى شمية، مسيَّة، إيمائية، أو إشارية، سمعية، إيقونية.

الكلمات المفتاحية:

السيمياء– التراث — الدرس– الحداثة– النقد– الإيماء– العلامة– النظام– المنهج.

ملخص المقال باللغة الأجنبية:

Lesson semiotic between tradition and modernity
Foundations and data

Semiotics perception and the theory and science of irreplaceable as demonstrated when a lot of students and researchers of the efficacy and efficiency of analytical anatomical in various disciplines of human knowledge.

We have expanded and entered significantly to the data cash for post-structuralism even promised an important pillar of the pillars of analysis, has been characterized by her evolution growing rapidly because they formed the tool and methodology minute to explain the behavior of signs and statement functions relations, and these relations are its ability to reproduce and survive and becoming, as reached semiotics place distinct between curriculum philosophical and monetary different world, I began to analyze brand introduced an explanation of the assets, and an understanding of the movement of the world, and an explanation of the systems Universe, and formulas endless for future projects taken from the brand framework encyclopedic to create new insights.

عرف النقد العربي الحديث والمعاصر مجموعة من المناهج النقدية بفضل المثاقفة والترجمة والاحتكاك مع الغرب، ومن بين هذه المناهج: المنهج البنيوي اللساني، والمنهج البنيوي التكويني والمنهج التفكيكي، ومنهج القراءة والتقبل الجمالي، والمنهج السيميولوجي الذي أصبح منهجا وتصورا ونظرية وعلما لا يمكن الاستغناء عنه لما أظهر عند الكثير من الدارسين والباحثين من نجاعة تحليلية وكفاءة تشريحية في شتى التخصصات والمعارف الإنسانية.

فمنذ أكثر من نصف قرن من الزمان والدراسات السيميائية تشهد توسعاً في كافة المجالات حتى طغت المؤلفات التي تبحث في العلامات وأصنافها على غيرها من الأبحاث؛ وذلك بسبب شمولية هذا العلم الذي بات من الممكن بواسطته التطرق لأي مجال من زاوية سيميائية[1]، فظهرت مجلات وأبحاث في اللغة والبلاغة وعلم الجمال تعتمد على هذا العلم (السيمياء)، وكل هذا يوحى بأنَّه قد أصبح علماً راسخاً قائماً على تعريفات وقواعد معترف بها يمكن تطبيقها بشكل نافع ومثمر في أي مجال من مجالات العلامات.

لقد أخضع الإنسان الطابع المركب لوجوده – الذي هو إفراز طبيعي لميراثه الثقافي – للدراسة والبحث، وذلك رغبة منه في اكتشاف قواعد سلوكه الرمزي، وكان نتيجة ذلك ظهور (علم السيميائيات)، الذي ستكون مهمته رصد وتتبع الدلالات (العلامات) التي ينتجها الإنسان من خلال جسده ولغته وأشيائه ومكانه وزمانه، وكذلك تعريفنا بوظيفة العلامة والقوانين التي تتحكم فيها، فأصبح مجال السيميائيات شاملاً ومتشعباً بحيث يشمل كل ظاهرة مهما كان نوعها، ما دام العالم الذي نعيش فيه غارقاً في العلامات[2].

وقد جاء في لسان العرب في مادة (س و م): "والسومة والسيمة والسيماء والسيمياء: العلامة وسوم الفرس: جعل عليه السيمة " [3]، ومنه قوله تعالى (لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين)[4].

قال الزجاج: روي عن الحسن أنّها معلّمة ببياض وحمرة، وقال غيره: مسوَّمة بعلامة يعلم بها أنَّها ليست من حجارة الدنيا، ويعلم بسيماها أنّها ممَّا عذَّب الله بها، وقال ابن الأعرابي: السيم العلامات على صوف الغنم، وأنشد أسيد بن عنقاء الفزاري يمدح عملية حين قاسمه ماله[5]:

غُلاَمٌ رَمَاهُ اللهُ بالحُسْنَى يَافِعَاً لَهُ سِيْمِيَاءٌ لا تَشُقُّ على البَصَرْ

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فَوْقَ نَحْرِهِ وفي جِيدِهِ الشِّعْرَى وفي وَجْهِهِ القَمَرْ

وإذا كانت العلامة عامة، فعلامة " الشيء ما يعرف به المعلم له، ومن شاركه في معرفته دون كل واحد كالحجر تجعلها علامة لدفين تدفنه فيكون لك دون غيرك، ولا يمكن غيرك أن يستدل به عليه إلا إذا وافقته على ذلك كالتصفيق تجعله علامة لمجيء زيد فلا يكون ذلك دلالة إلا لمن يوافقك عليه، ثم يجوز أن تزيل علامة الشيء بينك وبين صاحبك، فتخرج من أن تكون علامة له"[6].

يستبين من هذا النص مفهوم العلامة ومجالها، أمَّا السمة التي قيل فيها هي علامة، فقد وردت في القرآن الكريم بلفظ (سيماهم) ست مرات فيما أحصيت، وكان معناها أنَّها علامة على غيرها، فهي بياض الوجوه أو اسودادها، أو علامات النفاق، أو التواضع[7] هذا كله في معنى السمة، ويبقى معنى الوسم الذي نتوقعه غير هذا.

وإذا عدنا إلى المعاجم اللغوية للاستئناس بها، وجدنا معنى الوسم فيها يلف حول أثر مادي أليم، فالوسم أثر الكي، وفي حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَسِمُ إبلَ الصَّدَقَة أي يُعَلِّمُ عليها بالكَيِّ[8].

وجاء في تفسير الكشاف "وسم أبو العباس أباعر في وجوهها فقال له رسول الله: أكرموا الوجوه فوسمها في جواعرها"[9]، وفي القرآن الكريم يقول الله تعالى: "سنسمه على الخرطوم"[10]، وجاء في تفسيرها "سنبينه بياناً واضحاً حتى يعرفه الناس"[11]، وفي جميع معاني الصيغة وضع علامة بآلة حادّة كالمكواة.

ولا ريب في أنَّ قضية المصطلح من القضايا الشائكة التي تُطرح في ميدان السيميائيات، إذ ما زال هذا المصطلح يعاني الفوضى والاضطراب، ويعد المصطلح المسَمِّي لمفهوم السيميائيات واحدا من النماذج البارزة على هذا الاضطراب، إذ نُلْفي كثيرا من الدارسين يستعملون مصطلحيِ

"السيميوطيقا" و"السيميولوجيا" على سبيل الترادُف، كما أنَّ أغلب الباحثين العرب يستخدمون مصطلحات "السيميوطيقا" و"السيميولوجيا" و"السيميائيات" على أنَّها أسامٍ دالةٌ على معنى واحد.

ومع تنامي الوعي بأهمية المصطلح وتزايد الإحساس بضرورة ضبطه وتوحيده، وجدنا عددا من الباحثين ينتبهون إلى الفروق الموجودة بين المصطلحات التي كان يُظَنُّ أنَّها من قَبيل الترادف، وبناء على هذا الأمر التف بعض الدارسين إلى التمييز بين مصطلحي "السيميولوجيا" و"السيميوطيقا"؛ مثلما فعل جون دوبوا، وعمد آخرون إلى التفريق بين "السيميوطيقا" و"السيميولوجيا" و"السيميائيات"، ومنهم غريماس الذي أفرد – في معجمه الشهير الذي ألَّفه رفقة جوزيف كورتيس – لكل مصطلح من هذه المصطلحات حيزا خاصا[12]، كما قدَّم معجم (Hachette) الموسوعي تعاريف وتفاريق واضحة بين هذه المصطلحات؛ بحيث عرَّف "السيميولوجيا" بأنَّها "علم يدرس العلامات وأنساقها داخل المجتمع"[13]، وحدَّد "السيميوطيقا" بأنّها "النظرية العامة للعلامات والأنظمة الدلالية اللسانية وغير اللسانية"[14]، وحدَّد "السيميائيات" (Sémantique) بأنَّها "دراسة اللغة من زاوية الدلالة"[15]، ويعرِّف الأوكسفورد هذا المصطلح بأنَّه "دراسة معاني الكلمات"[16]، ومعنى هذا كله أنَّ السيميولوجيا علم، والسيميوطيقا نظرية، والسيميائيات دراسة أو منهج نقدي.

وتشكِّل العلامة أو الإشارة جوهر إبداع الإنسان وتطوّره، وبات يعتمد عليها كلياً في تنوعه المعرفي والثقافي، فمنها انطلق في اتجاه كسر قيود الوجود إلى آفاق أوسع عن طريق إبداعه أشكالاً تعبيرية ورمزية تعينه على التخارج والكشف عمَّا بداخله، وأخذت العلامة تتطور في تاريخنا البشري كمحصلة لصيرورة تفاعل الذات مع الوجود إلى أن أصبحت منظومة معقدة ومتشابكة نسعى من خلالها إلى توصيل معنى أدق وأوضح عن حقيقة التواصل فيما بيننا من جهة، وبين الوجود من جهة أخرى.

وعلى الرغم من تعرض علماء العرب في أبحاثهم للعلامة اللغوية كأداة للتواصل، ونقل المعارف، وتطرقهم لتعدد أدوات التواصل وتنوعها تبعا لحاجة البشر ومجتمعهم، فإننا لا ندعي أنَّ هذا العلم بصيغته الحالية كان معروفا، إنَّما ذلك لا يتعدى الإشارة إلى معرفة العرب للعلامة ووظيفتها، والعودة إلى التراث ضرورة وجودية ومعرفية في الوقت نفسه.

وانطلاقا من دور العلامة في الوجود وفي الحياة الاجتماعية، فالإنسان يشكِّل مع محيطه نسيجا متداخلا من العلاقات، يتفاعل مع بني جنسه مع الطبيعة في المواقف المختلفة معتمدا على

أنظمة من العلامات يخيفه البرق فيتصرف، تبكيه رؤية الأطلال فيتكلم، ويغني فيتعرف على الأشياء بواسطة العلامات.

من هنا اكتسبت العلامات بعدها الثقافي كحقائق خاضعة للمجتمع في حركته وتطوره، تنوعت تبعا لتنوع المعارف والحاجات الإنسانية، فهناك الألفاظ والإشارات والرموز والآثار والإيماءات والمشاهد، واختص كل نظام من الأنظمة السيميائية بعلامات خاصة، ومع ذلك يمكن أن تقسَّم هذه العلامات إلى لسانية (ألفاظ) أو اللغة البشرية، وغير اللسانية وتشمل جميع أنظمة السيمياء غير اللفظية، وهناك من يقسِّمها إلى شمية، مسيَّة، إيمائية، أو إشارية، سمعية، إيقونية[17].

ومن هنا يتضح أنَّ مصطلح " علامة " أوسع وأشمل من الكلمة التي تعد جزءا من الحقل الأعم، لأنَّها نوع لفظي من العلامات، تنطلق دلالتها وتتحدد من قيمتها في ثقافة من حيث لا معنى للصوت في حد ذاته، فهو يكتسب المعنى عبر القيمة الدلالية المرتبطة بالكلمة في لغة معينة أو ثقافة معينة.

والعلامة ثورة معرفية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فقد كان تأثيرها كبيراً بحيث تخطّى الحقل الإنساني إلى مجالات معرفية متعددة؛ بدءاً من الأنثروبولوجيا إلى النقد الأدبي، وحتى التحليل النفسي، ويجب ألا نغفل دور ثورة الاتصالات في تطور علم السيميائيات في العقدين الأخيرين، وخصوصاً في مجال الإعلانات التجارية التي كان لها الأثر الكبير في سرعة تنامي وتقدم هذا العلم.

وإذ حاولنا استقراء تراثنا العربي وجدناه حافلا بالدراسات المنصبَّة على دراسة الأنساق الدالة، وكشف قوانينها، ولاسيما تلك المجهودات القيمة التي بذلها مفكرونا من مناطقة وبلاغيين وفلاسفة وأصوليين...إلخ، بيد أنَّ مثل هذه الآراء السيميولوجية التي شملتها كل هذه المجالات المعرفية لم تكن منهجية أو مؤسسة على أسس متينة، ولم تحاول يوما أن تؤسس نظرية متماسكة تؤطرها أو تحدد موضوع دراستها أو اختيار الأدوات والمصطلحات الإجرائية الدقيقة التي تقوم عليها، وبالتالي لم تفكر في استقلالية هذا العلم، بل ظلت هذه الآراء السيميولوجية مضطربة تجرفها وتتقاذفها التصورات الإيديولوجية والسوسيولوجية والثقافية، ويقول مبارك حنون في هذا الصدد :" إلا أنَّ مثل تلك الآراء السيميولوجية التي احتضنتها مجالات معرفية عديدة بقيت معزولة عن بعضها البعض، ومفتقدة لبنية نظرية تؤطرها كلها" [18].

وينبغي أن نقر في هذا المضمار أنَّ نظام اللغة هو المحور الأساسي في الحقل السيميولوجي، والملاحظ يكتشف أنَّ جذور السيمياء والتأملات في اللغة قديمة قدم الإنسان والفكر والوجود، إذ وصلت إلينا بعض الملاحظات حول العلامة من الحضارات القديمة كالحضارة الصينية، واليونانية،

والرومانية، والعربية، غير أنَّ هذه التأملات بقيت في إطار التجربة الذاتية لا ترقى إلى مستوى العلمية والموضوعية، والظاهر أنَّ التأمل في السلامة نشأ لا عن قصد المعرفة، بل قصد التشكيك في المعرفة، أي من منطلق رفض هيمنة معرفية معينة، فالمدرسة الشكية الإغريقية تنطلق من أنَّ الحواس والمختصين يناقض بعضهم بعضا، لذلك يجب عدم التصديق بكل ما يزعم، والتشكيك في كل ما يقدم ويقال[19].

وقد وردت أول إشارة بينة إلى السيميائية باعتبارها فرعاً من فروع الفلسفة في مؤلف جون لوك (1632 – 1704) مقالة في الطبيعة البشرية[20]، غير أنَّ الدراسة السيميولوجية في عصره لم تتجاوز إطار النظرية العامة للغة وفلسفتها النظرية، ثم أخذ هذاا لمنهج السيميائي يتبلور مع تقدم العلم والعلوم الإنسانية بصفة خاصة، وأول من دعا إلى علم السيميولوجيا العلامة فيرديناند ديسوسير(1857– 1914) في محاضراته الصادرة سنة (1916)، حيث قال: "اللغة نظام من العلامات التي تعبر عن الأفكار"[21]، وقد نظر في هذا العلم المتخيَّل بمنظار لساني (لغوي) وليس بمنظار فلسفي، وقد كانت أفكاره وتفسيراته حول هذا العلم محدودة، لأنَّه تطرق إليه فقط أثناء كلامه عن الإشارة المتنوعة تدخل كلها فيما سماه بالسيميولوجيا التي تدرس حياة الإشارة في مجتمع من المجتمعات، ويمكن أن تكون جزءا من علم النفس الاجتماعي[22]، فهذا العلم يدرس بنية الإشارات، ويوضِّح الأنظمة والقوانين التي تحكمها، وهو غير قائم – حسب قول دي سوسير –لهذا فلا أحد يستطيع أن يعرف ماهيته، غير أنَّه في سعي دائب لتحقيق وجوده.

والحقيقة أنَّ السيمياء لم تصبح علما قائما بذاته إلا بعد العمل الذي قام به الفيلسوف الأميركي تشارلز سوندر بيرس (1839– 1914) والجهود التي بذلها في هذا الميدان، حيث قام بوضع نظرية خاصة بالإشارة سمَّاها (La sémiotique) ويعتقد أنَّها شاملة لجميع العلوم الإنسانية والطبيعية، إذ يقول: «ليس باستطاعتي أن أدرس كل شيء في هذا الكون كالرياضيات، والأخلاق، والميتافيزياء، والجاذبية الأرضية، والديناميكية الحرارية، والبصريات، والكيمياء، وعلم التشريح المقارن، وعلم الفلك، وعلم النفس، وعلم الأصوات، وعلم الاقتصاد، وتاريخ العلم، والكلام، والسكوت، والرجال، والنساء، والنبيذ، وعلم القياس والموازين، إلا على أساس أنَّه نظام سيميولوجي»[23].

وقد أجمع النقاد المحدثون على أنَّ (بيرس) لم يقرأ أو يلتقِ بسوسير والعكس صحيح أيضاً، إلاَ أنَّ معطياتهما تكاد تكون متقاربة ومنسجمة في بعض المواضع، فكلاهما أسَّس لعلم نقدي لغوي شامل، وهو علم السيميائية (Semiology) أو علم العلامات، وكلاهما انطلق من

تأسيس ذلك من خلال الحديث عن معطيات العلامة وتصنيفاتها ومداخلها، وميادين تنظيرها وتطبيقها، وكلاهما أسهم في إنعاش الحركة النقدية والمعرفية الأوربية، وعُدت معطياتهما طرائق يُهتدى بها في السلوك التحليلي الفلسفي والنقدي واللغوي الحديث[24].

وقد أشار دوسوسير –بالفعل– في أحد دروسه إلى إمكان قيام علم جديد يعالج حياة العلامات في كنف المجتمع، فيقول : "يمكننا أن نتصور علما يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، علما سيشكل فرعا من علم النفس الاجتماعي، ومن ثم فرعا من علم النفس العام، وسوف نطلق على هذا العلم اسم "سيميولوجيا" (من الكلمة الإغريقية "Semeîon" بمعنى "العلامة")، ومن شأن هذا العلم أن يُطْلِعَنا على وظيفة هذه العلامات، وعلى القوانين التي تحكمها، وما دام هذا العلم لم يوجد بعدُ، فلا نستطيع أن نتكهن بمستقبله، إلا أنَّ له الحق في الوجود، وموقعه محدد سلفا"[25].

وفي الوقت الذي تنبأ فيه سوسير بأنَّ علما للعلامات سيوجد مستقبلا، كان معاصرُه بيرس منشغلا بإبراز معالم هذا العلم دون أن تكون له معرفة مسبَّقة بما تنبأ به سوسير، وهذا ما جعل عدة باحثين يؤكدون سبْق سيميوطيقا بيرس على سيميولوجيا سوسير، ويقول جيرارد دو لودال في هذا الشأن: " لم ينقطع بيرس طَوال حياته عن تكوين نظرية حول العلامات، حتى وهو يهتم بموضوعات أخرى، لقد وضع أولى صياغاتها في عامي (1867م و 1868م)، ثم طوَّر المظهر "الذرائعي" في عامي (1877م و1878م)، ثم أعطى لهذا المظهر قاعدة منطقية ما بين عامي (1880م و1885م)، ثم أعاد النظر بعد ذلك في تلك الصياغة بناء على هذه القاعدة من عام (1894م) إلى آخر حياته، أمَّا سوسير، فلم يشر إلى هذا الموضوع؛ موضوع العلامة إلا في الدرس الثاني من دروس علم اللغة العام عامي (1908م و1909م)، ورغم أنَّ الفكرة كانت سابقة على ذلك التاريخ، ويمكن القول قبل عام (1901م) إذا أخذنا برأي أدريان نافيل (Adrien Naville)، ومن ثم فإنَّ سبق سيميوطيقا بيرس على سيميولوجيا سيوسير شيء لا يُنَاقَش"[26]، ويقول في موضع آخر مشيرا إلى احتمال تأثر سوسير ببيرس: "من الممكن جدا، بل ومن السهل أيضا، أن نجد في سيميولوجيا سوسير بعض المفاهيم الأساسية المرتبطة بسيميولوطيقا بيرس، هذا بالرغم من اختلاف سياقي السيميولوجيا السوسيرية والسيميوطيقا البيرسية"[27].

وقد استعمل الأوربيون مصطلح "السيميولوجيا" بتأثيرٍ من دي سوسير الذي وضع هذا المصطلح، واستعمله في محاضراته كما أشرنا سابقا، أمَّا الأمريكيون، فقد استعملوا مصطلح "السيميوطيقا" بتأثير من بيرس الذي وظَّفه في مختلف كتاباته حول العلامة، إلا أنَّ المصطلحين

معا عرفا انتشارا متبادَلاً، ويكفي أن ندرك أنَّ المنتمين إلى الثقافة الفرنسية لم يُقْصوا تماما من دائرة اهتمامهم وكتاباتهم مصطلح "السيميوطيقا"، نظرا إلى انتشاره الواسع في الثقافات الأخرى، وخاصة الأنجلوساكسونية والروسية، كما أنَّ مصطلح "السيميولوجيا" ظلَّ راسخا في فرنسا وفي غيرها من البلدان اللاتينية[28]، ويصِّر بارت (Part)وأتباعُه على استخدام مصطلح "السيميولوجيا"، وينحو نحوَهم أندريه مارتيني (André Martinet) وتلاميذه من الوظيفيي[29].

وقد حدد غريماس الفارق بين المصطلحين في اللغة الفرنسية، بأنْ جعل "السيميوطيقا" تحيل إلى الفروع؛ أي إلى الجانب العملي والأبحاث المنجَزة حول العلامات اللفظية وغير اللفظية[30]، في حين استعمل "السيميولوجيا" للدلالة على الأصول[31]؛ أي على الإطار النظري العام لعلم العلامات، وفرَّق آخرون بين المصطلحين على أساس أنَّ "السيميولوجيا" تدرس العلامات غير اللسانية كقانون السير، في حين تدرس "السيميوطيقا" الأنظمة اللسانية كالنص الأدبي... إلخ.

ومن الواضح جداً أنَّ الدارسين العرب مختلفون في شأن ترجمة هذا المصطلح إلى العربية، فمنهم من يستعمل مصطلح "السيميائيات"[32]، وهو المصطلح الرائج بين صفوف المغاربيين، ومنهم من يترجم ذلك المصطلح "بالسيميولوجيا"[33]، ومنهم من يترجمه ترجمة حرفية؛ أي بلفظ "سيميوطيقا"، ويستعمل بعضهم مصطلح "الرموزية"، ويقترح آخرون –وهم قلة– مصطلح "الأعراضية" مقابلا للمصطلح الأجنبي (Sémiologie) [34]، وذلك كما فعل الباحثان يوسف غازي ومجيد النصر في ترجمتهما لدروس سوسير، ويترجم الأستاذ عبد القادر قنيني مصطلح "Sémiologie" بـ"علم الدلالة"، ويترجمه دارس آخرُ بـ"علم الإشارات"، وهناك من يستعمل مصطلح "سيمياء" أو "علم السيمياء"[35]، وقد تطرق عبد السلام المسدّي في إحدى دراساته إلى المصطلحات الموضوعة أو المقترَحة لمفهوم السيميائيات في النقد العربي الحديث، ودرَسها مبيناً الكيفية المتبعة في توليدها[36]، ويُؤْثِر بعض الباحثين لفظ "السيمياء" باعتباره مصطلحا عربيا أصيلا وشائعا في كتب التراث، يقول الدكتور عادل فاخوري في هذا المضمار : "فالعلم نفسه أي الSemiotics يترجَم بـ: السيمياء، السيمية، السيميائية، السيميوطيقا، السيميولوجيا والرموزية، والأفضل "السيمياء" لأنها كلمة قديمة متعارَفة على وزن عربي خاص بالدلالة على العلم"[37]، وفي السياق نفسِه، تقول الدكتورة جميلة حيدة: "ولعل ترجمة مصطلح سيميولوجيا أو سيميوطيقا بالسيميائيات أو السيمياء هي الأقرب إلى الصواب لشيوعها في الاستعمالات العربية

القديمة"[38]، وبناء على هذا كله، فقد فضلنا مصطلح "السيميائيات" على غيره من المصطلحات، واستعملناه –بشكل محوري– في هذا البحث المتواضع.

إنَّ المفهوم الأساسيّ لسيميائية بيرس هو الصيرورة (السيموزيس: Semiosis) التي يعمل بموجبها شيء ما بوصفه دليلاً، وتحوي هذه الصيرورة على عوامل ثلاثة: (الممثل، والموضوع، والمؤوِّل)، وهي أقسام العلامة كما صنَّفها، والمهمة الأساسية – عنده – تكمن في تحليل اشتغال الدليل في الاستعمال الفردي للصيرورة بوصفها ذات وظيفة دلائلية تواصلية، وهذه الوظيفة هي خاصية جوهرية للغة محددة بقوانين القواعد، والوحدات اللسانية[39].

لقد استند التحليل السيميائي عند كل من بيرس وسوسير إلى ميراث فلسفي ينطلق من فجر الطرح الفلسفي مع اليونانيين: أفلاطون وأرسطو (–322 ق.م)، والرواقيين (Stoics)، والشكيين (Scepticum) مروراً بأوغسطين (– 430م) وتوما الأكويني (– 1274م) وديكارت (– 1650م) وهيجل(–1831م)، ولوك (–1704م) وانتهاءً بأنجلز (–1895م) وماركس (–1883م) ودوركايم، وقد تحدث تودوروف بشكل مفصَّل عن ولادة السيميائية الغربية في كتابه: (نظريات في الرموز)، وبيَن أنَّ مسيرة السيميائية ممتدة زمنياً ولا يمكن اختصارها، فمعطياتها متشابكة، وطرحها الفلسفي والنقدي يلفّ العالم أجمعه، ويطمح إلى رسم فهم للوجود من خلال تفسير العلامات وتحليلها، وبيان وظائفها وفاعليتها ومساهمتها في إنشاء التواصل بين مختلف الموجودات[40].

ومن هذا المنطلق توسعت مباحث السيميائية وشملت مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بل وحتى النفسية، ودخلت بشكل كبير ومباشر إلى المعطيات النقدية لما بعد البنيوية، حتى عُدت ركناً مهماً من أركان التحليل النقدي لما بعد البنيوية، وقد اتسمت مسيرة السيميائية بالتطور المتنامي المتسارع، لأنَّها شكَّلت الأداة والمنهجية الدقيقة في تفسير سلوك العلامات وبيان وظائف علاقاتها، وهذه العلاقات تتسم بقدرتها على التوالد والاستمرار والصيرورة، إذ بلغت السيميائية مكاناً متميزاً بين المناهج الفلسفية والنقدية العالمية المختلفة، لقد ابتدأت من تحليل العلامة فقدَّمت تفسيراً للموجودات، وفهماً لحركة العالم، وشرحاً لأنظمة الكون، وصيغاً لا نهائية لمشاريع مستقبلية تتخذ من سلطان العلامة إطاراً موسوعياً لإبداع رؤى جديدة.

من هنا يتضح أنَّ التحليل السيميائي عند كل من بيرس وسوسير عبارة عن بيان شبكة من العلاقات تستهدف دراسة أوجه النشاطات والفعاليات الإنسانية في مظاهرها الدالة، ودلالاتها

الممكنة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، ويستهدف معرفة كيفية عمل الأنظمة الدلالية: (اللسانية وغير اللسانية)، لذلك استخدمت المجاميع والمدارس النقدية المختلفة طرائق متباينة لاستعمال التحليل السيميائي ما بين تحليل سيميائي للتواصل، وآخر للدلالة، وللثقافة.

ويتضح الفرق النقدي بين معطيات سوسير عن السيميائية، ومعطيات بيرس عنها بالنقاط الآتية[41]:

1- انطلاقة سوسير المنهجية كانت لغوية لسانية، أمَّا بيرس فمنطلقه فلسفي منطقي.

2- العلامة عند سوسير ثنائية المبنى تتكون من دال ومدلول، أي تجمع بين الصورة العيانية والصورة الذهنية ولا تجمع بين الشيء ومسمَّاه، في حين أنَّ العلامة عند بيرس ثلاثية المبنى تتكون من الممثل (المحمول Interprétant)، والرابطة (الوسيلة Connective)، والموضوع (Object) وهي مبنية على قاعدة رياضية تقول: إنَ كل نظام لابد أن يكون ثلاثياً.

3- أكدَ سوسير بشكل كبير أهمية العلامة داخل نظامها في النص دون الارتباط بعالم المرجعية خارج النص، ودرس اللغة من خلال وصفها نظاماً أجزاؤه مرتبطة فيما بينها، في حين أكدَ بيرس أهمية العلامة في علاقتها بعوالم ثلاثة: (عالم الممكنات وعالم الموجودات، وعالم الواجبات)، وقد استمد بيرس هذه المقولات من مقولات الظاهراتية: (فلسفة الكائن، ومقولة الوجود، ومحاولة الفكر لتفسير الظواهر).

4- العلامة عند سوسير لغوية – حصراً – وتمتاز بكونها تباينية واعتباطية في علاقة دالها بمدلولها، أمَّا العلاقة عند بيرس فهي لغوية وغير لغوية.

5- تتحدد العلامة بعلاقة الدال والمدلول، ويتحدَّد الرمز بعلاقة المرموز والمرموز له، ولا تحوي العلامةُ الرمزَ عند سوسير، أمَّا عند بيرس فالعلامة تتحدد بعلاقة الحامل مع المحمول مع الموضوع، فضلاً عن علاقة الآيقون والرمز والإشارة، بمعنى أنَّ العلامة عند بيرس تحوي الرمزَ الذي يشكل جزءاً منها.

6- علامة سوسير هي أساس السيميولوجيا (Sémiologie)، وتعدّ جزءاً من علم النفس (Psychologie)، أمَّا علامة بيرس فهي أساس السيميوطيقا (Sémiotique)، وتعد جزءاً من علم المنطق (Logicology) .

7- تشكِّل اللسانيات جزءاً من السيميائية عند سوسير، لأنَّ اللغة فعل سيميائي، في حين تشكِّل المقولات الفلسفية عن الوجود والعالم صورة التحليل السيميائي عند بيرس.

من ههنا يتبين أنَّ السيميائية في معالجتها للعلامات المنبثقة من الأشياء والأفعال، أعطت وحمَلت منهجية ما بعد البنيوية إمكانية السيطرة على الممارسات المعرفية من خلال امتلاك إدارة تأويل العلامة، وتحديث صيغ دلالية يستدعي بعضها البعض من خلال عملية تحوّل دقيقة تجري بين نظاميّ: (العلامة/النسق)، و(الناقد/المعنى)، فغاية الناقد تفسير العلامة المتموضِعة في نسقها للوصول إلى المعنى، في حين يسعى ناقد ما بعد البنيوية للوصول إلى اختلافات المعنى، وعدم الاقتناع والتسليم بحدَ معين، والغاية هي الدخول في لعبة يغيب فيها المدلول ويحيل فيها الدال إلى دوال أخرى، وبهذا اتسم تحليل ما بعد البنيوية بصفة التحليل العدمي، وبلا نهائية الدلالة (الدلالة غير محدودة).

ومن النتائج المهمة الأخرى التي قدمتها السيميائية للمسار النقدي لما بعد البنيوية هو: ذوبان الإنسان . حسب كيلر . في سلسلة من الأنظمة، ومعالجة الثقافات الإنسانية بوصفها علامات[42]، فضلاً عن دراسة المشاريع المعرفية المستقبلية بوصفها علامات أيضاً، واكتشاف طبيعة الأبحاث والحقول المختلفة التي تجعل الاتصال الأدبي ممكناً، وتمييز الاختلافات بين الخطاب الأدبي والخطاب اللاأدبي، وإحالة الدلالة إلى أنَ الأشكال والمفاهيم لا توجد مستقلة، بل إنَّ دوالها ومدلولاتها هي كيانات علائقية ناتجة من نظم الاختلاف، وبهذا يمكن للسيميائية أن تقدم فرعاً معرفياً تحليلياً يجمع في منظور شامل سلسلة كبيرة من الظواهر تستجيب للمعالجة بطريقة مشتركة عن طريق تفسير العلامات وتحليلها، ولأجل ذلك كله وُصِفت السيميائية بكونها حركة إمبريالية (Impérialisme) تتحرك فوق الميادين المعرفية في العلوم الاجتماعية والإنسانية[43].

أمَّا على صعيد تأثير بيرس وسوسير في المدارس والمفاهيم والنقاد، فقد كانت حصة سوسير هي الأكبر، وذلك نتيجة للمسوغات اللسانية واللغوية المستخدمة في تحليلاته، وكانت هي الأقرب للتوظيف عند النقاد لوضوحها وبعدها عن الإيغال في التبويب، والتقسيم، والمداخلات المنطقية والفلسفية.

ولم يكن الحال كذلك مع بيرس الذي استند في تحليلاته العلامة على التقسيم الفلسفي والمنطقي، ممَّا جعل هذا التقسيم بعيداً عن الميدان الألسني، قريبا من التنظير المنطقي، ومِن أبرز النقاد الذين تأثروا ببيرس – بشكل كبير– ناقدين اثنين هما: (غريماس، وسيبيوك)، اشتهِر الأول بتحليلاته السيميائية المنطقية لميدان السرديات (Narratives)، وبتقسيماته الدلالية المتعددة لوحداته، مستخدما منهجية بيرس في تحليل العلامة، وتحصيل الدلالة[44].

ومن خلال شروحات كل من سوسور وبيرس تكون السيمياء قد تمكنت من وضع بدايات ضرورية لمسيرتها منذ بداية القرن العشرين، وصار ممكنا الحديث عن نظرتين للعلامات العامة من خلال المنظور الأوروبي لمدرسة العلامات، والمنظور الأنجلو سكسوني المتمثل بطروحات بيرس وتطويرها عبر المناطقة، إلا أنَّ التعميق الأكثر للسيمياء كان بحاجة إلى ظهوره من خلال رولان بارت (1964) والذي حاول أن يضع ممارسة تجريبية للعلامات داخل الخطاب الأدبي موسعا من ناحية جمالية القدرة اللغوية الحاملة للعلامات، واهتمامه الشيِّق بفن الإنتاج العلامي من خلال النصوص والكتابات الأدبية في الوقت الذي تكون فيه النظرية العامة للسيمياء على اتفاق بضرورة وجود علم للعلامات[45].

من هنا نستطيع القول أنَّ علم السيمياء يهدف إلى استكشاف نظام البناء والعلاقات في مختلف أشكال التواصل وفق منطلقات منهجية ومرتكزات نظرية، لذلك فهو يمتد ليشمل مختلف الأنظمة السيميوتيقية، إذن فهو علم لجميع أنساق العلامات.

هوامش البحث:

[1] عبد النبي ذاكر،السيميائيات الواصفة (المنطق السيميائي وجبر العلامات)؛ المركز الثقافي العربي، بيروت . الدار البيضاء 2005، ص25.

[2] برنارد توسان، ما هي السيميولوجيا؟، تر: محمد نظيف، إفريقيا الشرق (البيضاء)، ط 1(1994)، ص 62.

[3] ابن منظور، لسان العرب، مادة: (سوم).

[4] الذاريات: 33-34.

[5] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر (بيروت)، ط 1(1990)، المجلد 12، (مادة وسم)،ص 312.

[6] أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة،منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت – لبنان، ط4، 1980، ص 62.

[7] ينظر: محمد الصابوني، صفوة التفاسير، ط5، 1990 ج3، ص229.

[8] ابن منظور، لسان العرب، (مادة وسم).

[9] الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تصحيح وضبط وترتيب مصطفى حسين أحمد ،- دار الكتاب العرب، ج4، ص588. والجواعر هي الأرجل.

[10] القلم: 16.

[11] الزمخشري، الكشاف ص4: 588.

[12]مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد لحميداني وأخرين، إفريقيا الشرق، دار البيضاء، ط1، 1987، ص 55.

[13] Hachette : Dictionnaire HACHETTE encyclopédique, Hachette livre, Paris, 2002, p212.

[14]المرجع نفسه، ص 245.

[15]نفسه، ص 255.

[16] OXFORD UNIVERSITY: OXFORD Learner's Pocket Dictionary, O.U.P, 2nd ed, 1991, p352.

[17]محمد السرغيني، محاضرات في السيميولوجيا،دار الثقافة الدار البيضاء، ط1987،1م، ص86.

[18]مبارك حنون، دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1987؛ ص 56.

[19]عادل فاخوري، حول إشكالية السيميولوجيا (السيمياء)، عالم الفكر، مج 24، ع 3، 1996، ص 189.

[20]حنون مبارك : دروس في السيميائيات، ص 25.

[21] دي سوسير(فردينان)، دروس في الألسنية العامة، ترجمة صالح القرمادي وآخرين، ط1، الدار العربية للكتاب، تونس 1985م، ص 123.

[22]ينظر نفسه، ص 155.

[23]عبد النبي ذاكر، سيميائيات التواصل وفعالية الحوار، المفاهيم والآليات، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، سيدي بلعباس، الجزائر 2004، ص 122.

[24]ينظر: بيرس أو سوسير، جيرار لودال، تر: عبد الرحمن بوعلي، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد 3 السنة 1988 ص117.

[25] دي سوسير(فردينان)، دروس في الألسنية العامة، ص 124.

[26]جيرار دولودال: السيميائيات أو نظرية العلامات، تر: عبد الرحمن بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة (البيضاء)، ط1 (2000)، ص 96.

[27]نفسه، ص 127.

[28] مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ص 45.

[29]ينظر: المرجع نفسه، ص 165.

[30]برنارد توسان، ما هي السيميولوجيا؟، ص 126.

[31]نفسه، ص 127.

[32] محمد السرغيني، محاضرات في السيميولوجيا، ص 124.

[33]نفسه، ص 128.

[34]حنون مبارك، دروس في السيميائيات، ص 86.

[35] رشيد بن مالك،السيميائية بين النظرية والتطبيق مخطوط رسالة دكتوراه السنة الجامعية جامعة تلمسان95/94، ص42.

[36] عبد السلام المسدّي، المصطلح النقدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع (تونس)، ط 1(1994)، ص115.

[37] عادل فاخوري : حول إشكالية السيميولوجيا (السيمياء)، عالم الفكر، مج 24، ع 3، 1996، ص 187.

[38] جميلة حيدة، النقد الأدبي المعاصر حول الشعر بالمغرب (1960-1990م)، وجدة 2002، ص165.

[39] مارسيلو داسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ص113.

[40] جان كلود كردان، التحليل السيميوطيقي والأدب، تر: عبد الرحمن طنكول، مجلة (دراسات سيميائية أدبية لسانية)، فاس، ع1، خريف 1987، ص121.

[41] ينظر: برنارد توسان: ما هي السيميولوجيا؟، تر: محمد نظيف، ص116 وما بعدها.

[42] البحث عن الإشارات، جوناثان كيلر، ت: محمد درويش، مجلة الرواد ، العدد 1 لسنة 1998، ص79.

[43] المرجع نفسه، ص80.

[44] نفسه، ص80.

[45] برنارد توسان: ما هي السيميولوجيا؟، تر: محمد نظيف، ص 112.